

دلالة على ان العلم هو... والى ذلك ان العلم هو...
عنه في قوله ان العلم هو...
بسطاً جداً وهو ان العلم هو...
منه في قوله ان العلم هو...
تلقوا العلم في قوله ان العلم هو...

بين العلم والسياسة

[عادت كتب المقال من المؤتمر الاقليمي لدراسات ما قبل التاريخ الذي انعقد بمدينة نيروبي في شهر يناير ١٩٤٧ ، بعد أن مثل فيه جامعة فاروق الاول . وهو يسجل هنا بعض انطباعات وملاحظات طابرة عن المؤتمر .]

يقال في محافل العلماء وفي دور البحث والدراسة إن العلم ينبغي أن يطلب من أجل العلم ، وإن طلاب العلم والباحثين عن المعرفة ينبغي أن يخلصوا فيما يطلبون وفيما يبحثون ، فلا تكون لهم غاية نفسد ما يسعون إليه ، ولا غرض يهدف بهم ويوجههم فيما يشدون . ويقال أيضاً إن العلم ينبغي أن يرتفع بأهله فوق الغايات ، وأن يتنزه بهم عن كل الأغراض ، فلا يبتغون من ورائه غير وجه الحق ووجه الله . وهو إن انتهى بالناس في بعض الأحيان والحالات إلى غاية فانما ينتهي إلى ما يهذب النفس ويصقل العقل ويرقى بالفرد والجماعة إلى مراتب الانسانية التي لا تعرف من الغايات والأسباب إلا ما يخرج بالناس من الضلالة إلى الهدى ومن الجهالة إلى النور . بل يقال أكثر من ذلك إن العلم الصادق ينبغي أن يكون خيراً للانسانية كلها ، لا يسخر من أجل جماعة من الناس دون أخرى ، ولا ينتفع به فريق من الخلق دون فريق ؛ فالعلم شعاع من نور الله وقبس من ناره ؛ وما دام الله للخليقة جميعاً فالعلم ينبغي أن يكون وأن يبقى للناس أجمعين .

هكذا علمنا أسياناً في مصر وفي غير مصر ؛ وهكذا كتب العلماء وتحدث المتحدثون عن العلم في مختلف العصور ؛ فقالوا إن العلم لا وطن له ، وإن العالم الحق من ضاق به موطنه الصغير فاتخذ من العالم كله وطناً له ، وإن اتساع العقل ورعاية الفكر وبعد المعرفة وعمق الثقافة لا بد أن تنتهي كلها بطالب العلم إلى أن تكبر نفسه ويتسع قلبه ، فيجمع في ذاته بين خير ما يستطيع أن يجمع

إنسان من ثقافة العقل وأدب النفس وحياة الضمير . . . ولعله أن يبلغ بذلك أرفع ما تستطيع أن ترقى إليه الإنسانية ، وأقرب ما يستطيع أن يكون عليه إنسان من الله .

ومع ذلك فالذى يدرس تاريخ العلم والعلماء منذ بدأ الانسان يبنى تراثه فى العلم والمعرفة ، لا يستطيع أن يقول فى إنصاف إن العلم كان فى وقت من الأوقات خالصاً لوجه الله كما أراد له العلماء ، وهو لا يملك إلا أن ينتهى إلى أن هذا الكلام الكثير الذى رده حملة العلم عن رسالتهم كان أدنى إلى التمنى والرجاء منه إلى الحقيقة والواقع . بل إن الذى يدرس تاريخ العلم يكاد ينتهى إلى أن ما تمناه العلماء كان فيما يبدو أبعد من أن تستطيعه نفس إنسان . وما دام حملة العلم من بنى الانسان ولا من الملائكة ، فلا سبيل إلى أن نجرد العلم من « إنسانيته » ، بكل ما تحمل هذه الكلمة الأخيرة من معنى . وإذا كان بين البشر من حقق ما هدى إليه العلماء ، أو قارب أن يفعل ذلك ، فأولئك صفوة مختارة لا تمثل أبناء العلم فى جملتهم ، أو هم فلتة من فلتات الطبيعة لا يصح أن يعتد بها فى الحكم على طبيعة العلم والعلماء .

وفوق ذلك فنحن إن رجعنا إلى تاريخ الثقافة والمعرفة وجدنا أن لإنسان قد نزع أول ما نزع إلى إشباع حاجاته الروحية ، وأنه قدم تلك الحاجات على حاجاته العقلية . ولذلك فإن جانب الدين سبق جانب العلم فى تراث الانسانية الثقافى . بل إن الروح سخرت جوانب الثقافة الأخرى فى الفن واللغة والعلم ، فسعت كلها فى أغلب أعصر التاريخ لتسبح نزوع النفس إلى الروحيات . ولئن كان العلم قد سعى فى العصر الحديث لأن يستقل بنفسه عن ثقافة الروح فانه لم يجاوز حتى الآن محاولاته الأولى فى أن يقف بذاته ؛ بل هو قد تجاذبته نزعات أخرى فى الحياة الجديدة ، منها النزعة القومية التى تأبى إلا أن تسخر كل شىء من أجل حياة الأمة بين غيرها من الأمم . ومنها النزعة الدولية التى هممت بنفر قليل من العلماء ورجال الفكر إلى أن يقحموا العلم فيما لا راحة للعلم والعلماء أن يقحموا أنفسهم فيه من نظم الجماعات ونظريات الحكم وتنظيم العلاقات الدولية فى عالم يضطرب ويتطور من يوم ليوم ، أو فى القليل من جيل لجيل . بل منها النزعة العقلية ذاتها ، وقد قسمت علماء الجيل فرقا وأشياء فيما ينبغى أن يهدف إليه العلم والبحث العلمى من غاية أو غايات تتصل بالمادة وتلزمها حيناً ، وتجاوزها وتمتد إلى

ما وراءها حيناً آخر . وذلك كله إن دل على شئ فعلي أن العلم يصعب جداً ، أو يستحيل فيما يظهر ، أن يأتي مجرداً أو خالصاً لذاته . وما ذلك إلا لسبب بسيط جداً وهو أن العقل البشرى لم يخلق منزهاً عن الغاية أو مجرداً من الغرض ، أو حتى خالصاً لوجه الحق أو وجه الله .

وقد ينبغي أن نذكر هذا كله وأن نتمثله واضحاً جلياً عندما نعرض لحياتنا الحاضرة وبعض ما يتصل بها أو يترتب عليها من مشكلات . فالعلم في عصرنا الحديث قد تدخل في حياة الناس والجماعات إلى حد بعيد ؛ والحياة القومية أصبحت لا تقوم على أساس مكين إلا إذا وجهها العلم ورسمت لها الخطط العلمية . والعلم ذاته قد غدا في خدمة المجتمع في كل جماعة تدعى لنفسها الرقي ، بل في الحياة الدولية بعد أن اتسمت بطابع التوجيه العلمي في غير قليل من الأشياء . لذلك كله لم يعد العلم خالصاً ولا مستقلاً عن الحياة القومية والدولية . وكلما ازدادت الحياة القومية تعقداً والحياة الدولية تشابكاً برزت صلة العلم بأسباب الحياة العملية ومصالحها النفعية في صور وأشكال جديدة . ولعل أغرب ما تتجلى فيه تلك الصلة بعض المجالف التي يجتمع فيها نفر من العلماء ، يتذاكرون تقدم العلم والمعرفة ، ويعرضون خطواتها بين حين وحين . ففي هذه المؤتمرات يجتمع العلماء من أركان الأرض ، يمثل كل فريق منهم أمة من الأمم ، ويباهى بما لها من نصيب موفور — أو يجب أن يكون موفوراً ! — في تقدم العلوم ، ويحاول كل منهم أن يكسب لأتمته ما استطاع من علم جديد أو منفعة مترتبة على علم جديد . وبعض هذه المؤتمرات دولى عالمى يشمل أمم الأرض جميعاً ، وبعضها الآخر يقتصر على قارة بالذات ، ويدرس شؤون العلم المتصلة بها . ومن هذا النوع الأخير مؤتمر عقد أخيراً في نيروبي عاصمة كينيا بشرق إفريقيا ، ودعيت للاشتراك فيه دول القارة الإفريقية وبلدانها مستقلة وغير مستقلة ، وكذلك عدد من الدول المهتمة بشؤون القارة أو بالدراسات المتصلة بها . وكان المؤتمر خاصاً بعصر ما قبل التاريخ ، ونشأة الحضارات وتطورها في القارة المظلمة قبل أن يبرز فجر التاريخ ؛ أى إنه كان في ظاهر الأمر بعيداً كل البعد عن أوجه النفع التي قد تتصل بحياتنا الحاضرة . ومع ذلك فإن هذا المؤتمر ، على بعد ما بيننا وبين العهد الذى انعقد من أجل دراساته ، قد مس السياسة الحاضرة مساساً تجلى فيه ما يمكن أن يكون بين السياسة والعلم من أسباب لا يضعفها بعد الشقة في الزمان

ولا يقلل من قيمتها ارتباط العلم أحياناً بالماضى السحيق من جهة ، وارتباط السياسة غالباً بالحاضر أو المستقبل من جهة أخرى . . . إذ الواقع أن ليس بين العلم أيّما كان ميدانه وزمانه وبين السياسة في هذا العصر الذى نعيش فيه حجاب لا تخترقه الغايات !

والذى يدرس شؤون القارة المظلمة فى الجيلين أو ثلاثة الأجيال الماضية يعرف أن ظلمة هذه القارة لم تمنع أعين العالم الأوروبى من أن تتطلع إليها ، وأن تمنع فى التطلع ، علها أن تصل إلى قلب القارة المظلمة من أى طريق . وقد سبقت بريطانيا غيرها من الأمم الأوربية فتطلعت إلى إفريقيا السوداء من الشمال ومن الغرب ومن الجنوب ومن الشرق ، وراح الجوّالون والمستكشفون البريطانيون من أمثال لفتجستون وستانلى وسبيك وغيرهم يرتادون القارة ويتوغلون من الساحل إلى الداخل ، يضيفون إلى العلم والمعرفة ما لم يسمع به الرجل الأبيض من قبل عن أرض يقطنها المتوحشون والبرابرة من الزنج وأنصاف الحاميين . ثم راحت الجمعيات العلمية تعنى بنتائج هذه الرحلات ، وتدّيع عنها بين الناس ما حفز همة الراغبين فى الإفادة مما أتى به الرحالون من علم ومعرفة ؛ فتكونت شركات التجارة ، وتقدم أهل المشروعات ومن ورائهم الحكومة آخر الأمر — أو قل أوله — بل تقدم نفر متزايد من أهل الدين ورجاله وحملوا مشعل المدنية المسيحية إلى قلب القارة الذى لم يعرف عن الأديان السماوية إلا ما انتهى إليه من قبل عن الإسلام أو عن المسيحية الشرقية خلال بعض أطراف إفريقيا البيضاء أو السمراء . وهكذا تداخلت المصالح المشتركة بين أهل الرحلة وأهل التجارة وأهل المشروعات وأهل الدين وأهل السياسة ؛ وانتظمت جهود هؤلاء وهؤلاء فاتخذت صبغة العمل الحكومى الذى استحال آخر الأمر — أو قل أوله أيضاً — إلى عمل عسكري صحبه أو ترتب عليه قيام الاستعمار الحكومى الحديث فى صورته وأشكاله المعروفة .

وقد يعيننا فى صدد مؤتمرات الدراسات الإفريقية لعصر ما قبل التاريخ أن نستشف ما قد يكون من وراء تنظيمه من سبب أو أسباب . فبريطانيا ، أو إحدى مستعمراتها الشرقية ، هى التى نظمته ودعت إليه . وليس من شك فى أن علماءها كانوا مخلصين وجادين فى الأمر حين دعوا أو تقبلوا ما هبىء لهم من دعوة المؤتمر للانعقاد والدراسة فى إحدى مستعمرات الإمبراطورية . ولكن

المؤتمر قد سبقه تفكير علمي سياسي - أو سياسي - علمي إن شئت - فقد كان من ورائه فيلسوف الإمبراطورية وقائدها الإفريقي المرشال سمطس ، وهو الذي يعرف ما للدراسات والبحوث العالية من قدر وخطر ، وما يكون لها ويترتب عليها من نفع قريب أو بعيد ، وهو في الوقت نفسه راسم كثير من خطط الإمبراطورية السياسية ، وخير من يعرف أن روابط العلم قد لا تقل عن روابط السياسة ، وأن الخطة السياسية ينبغي أن تسبقها دراسة علمية ؛ فقد يركى العلم والمعرفة السياسة بأكثر مما تركزها القوة والسلطان ، وقد يكون العلم طريقاً إلى الربط بين بقاع من الأرض وأشتات من الخلق لا تقوى السياسة بمفردها على أن تربط بينها برباط مكين أو وثاق أمين ، بل قد يكشف العلم عن روابط خفية لا تراها عين السياسة بغير منظار العلم الذي كثيراً ما يحترق الحجب في الزمان وفي المكان .

وسينفغنا هنا ولا شك أن نذكر أن الإمبراطورية البريطانية كانت تسعى في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن إلى أن تربط بين أقصى القارة في الجنوب والشمال . فقد تقدم مستعمروها ، وعلى رأسهم سيسيل رودس ، من جنوب القارة في العشرة الثامنة وما بعدها من القرن التاسع عشر نحو ما عرف فيما بعد باسم روديسيا وإفريقية الشرقية ؛ وتلا ذلك تقدمهم في العشرة التاسعة وما بعدها إلى أرض مصر ووادي النيل . ولاح في الأفاق مشروع ربط مدينة الكاب بمدينة القاهرة بطريق حديدي أو طريق آخر يربط أقصى الجنوب بأقصى الشمال ويفتح السبيل أمام أبناء الإمبراطورية فينفذون من أحد طرفي القارة إلى طرفها الآخر ، بعد أن تكالبت أم أوربية أخرى على غير هذين الطرفين من القارة إلى فسدت المنافذ أمام بريطانيا وقطعت عليها السبيل في أن تنفذ من الشرق إلى الغرب ، وفي أن تتصل أملاكها بين ساحلي القارة على المحيطين الهندي والأطلسي . واستمرت الحال على ذلك حتى تحينت بريطانيا الفرصة ، وتم لها ما أرادت في خلال الحرب العالمية الأولى ، فاتصلت أملاكها والأراضي الواقعة تحت حمايتها بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال . وكانت بريطانيا قد عنيت عناية خاصة منذ القرن الماضي بأن تكون لها السيادة على حوض النيل كله ، أو بأن يمتد سلطانها على الأقل بين مصب النيل في البحر المتوسط ومنابعه في الهضبة الاستوائية التي تقع على طريق الكاب والقاهرة . كذلك عنيت بريطانيا عناية خاصة بأن

تضييق الخناق على ألمانيا في توسعها الإفريقي ، بأن تطردها وتحمل محلها في مستعمرة تنجانيقا عندما شبت الحرب العالمية الأولى . فلما تم لها ذلك زالت آخر عقبة في سبيل اتصال أملاك الامبراطورية ومناطق نفوذها في الشرق الإفريقي . وقد يسأل القارئ ولماذا اختارت بريطانيا شرق القارة دون غربها سبيلا للاتصال بين الجنوب والشمال ؟ والجواب على ذلك عند أهل الجغرافيا وأهل السياسة ؛ ففي شرق القارة هناك وادي النيل وخيراته التي تحدث عنها التاريخ ؛ وهناك الهضبة الاستوائية المرتفعة حيث يطيب المناخ وتصلح المرتفعات لهجرة العناصر البيضاء واستقرارها بصفة دائمة ؛ وهناك البحر الأحمر وهو الطريق إلى البحار الدفيئة وإلى الهند ؛ ثم هناك المحيط الهندي ذاته وهو طريق الامبراطورية إلى الشرق الهندي وما وراءه حتى استراليا . وكل هذه مغريات طبيعية وغير طبيعية ، يضاف إليها أن غرب القارة قد شاركت فيه دول أخرى كثيرة ، منها أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا والبرتغال بل أمريكا ذاتها ، فكثرت هناك أيدي الدول الأخرى ، ووجدت بريطانيا مجال التوسع في الشرق أدنى مناسلا وأبعد عن المشاحنات من ميدان التكالب الدولي العنيف على شواطئ القارة الغربية . من أجل هذا كانت عناية الامبراطورية بشرق القارة أشد من عنايتها بغربها . ومن أجل هذا حاول البريطانيون أن يعرفوا عن الشرق الإفريقي ما يعينهم على رسم خططهم في استعمارة واستغلاله على أساس علمي . ومن أجل هذا أيضاً عني قادتهم في الفكر الاستعماري بهذا الجانب من القارة أكبر العناية وقد لا نبعد كثيراً عن الحق إن استنتجنا أن هذا كان من عوامل اهتمام بريطانيا بهذا المؤتمر بالذات ؛ واختيار نيروبي وأرض كينيا في قلب إفريقيا الشرقية لتكون مقراً لأول مؤتمر إفريقي يعقد لتنظيم الدراسات الجغرافية والأثرية القديمة وغيرها من بحوث عصر ما قبل التاريخ ، ثم دعوة المؤتمر ليعقد دورته القادمة في جوهانسبرج باتحاد جنوب إفريقيا بعد أربع سنوات بل ربما كان هذا هو الدافع إلى إصرار فريق من علماء الامبراطورية في أن يكون تنظيم المؤتمر على نمط بغاير من بعض الوجوه ماجرى عليه العمل في المؤتمرات الدولية العالمية ، ومحاوله فريق منهم أن يضمن للمؤتمر أن يكون رئيسه وسكرتيره العام من البريطانيين ، لولا أن انتبه فريق آخر من غير البريطانيين ، فاختر للمؤتمر رئيس فرنسي واحتفظ للدولة الداعية بالوظيفة الأخرى . . . إلى غير ذلك من نيارات ظاهرة وأخرى خفية ،

أريد بها فيما يبدو أن يتجه المؤتمر وجهة يصح بحق أن يقال فيها إنها تقع على هامش السياسة !

وهكذا اتضح منذ البداية أن العلم والسياسة كثيراً ما تتجاوب بينهما الأصدقاء ولو من بعيد ؛ فتنصر السياسة للعلم وتتردد أحاديث ما ينبغي من رعاية للعلماء ، ويتغنى العلم بأنه في خدمة المجتمع ، أو أنه في القليل يخدم مصالح الإنسانية عن طريق خدمة المصالح القومية . . . ولكن الشئ الغريب أن السياسة في هذا المؤتمر سعت إلى أن يكون لها شئ من التوجيه عن طريق الرعاية ؛ كما أن العلم لم يقف عند الاستجابة لدواعي الخدمة القومية ، وإنما كاد ينحرف ويميل ، لولا بقية من روح العلم ، وتخوفاً من جانب العلماء أن يحرفهم التيار أو أن يميلوا كل الميل . . . بل لولا تلك الرقابة المتبادلة التي اعتادت فرق العلماء وأحزابهم أن يفرضها بعضهم على بعض ، وأن يتلقوها جميعاً بكثير من الخوف والحذر ، أو قل من المخافة والاشفاق !

ومن الغريب أيضاً أن فريقاً من العلماء البريطانيين في المؤتمر تعصبوا تعصباً ملحوظاً أو غير ملحوظ لإبراز قيمة شرق إفريقية في تطور الحضارات البشرية عامة والحضارات الإفريقية خاصة ؛ فقالوا إن بلاد كينيا وتنجانيقا وبقية الهضبة الاستوائية الشرقية ربما كانت موطن الحضارات الأولى ، وإنما في ذلك يجب أن تعتبر أعرق من غيرها من مناطق إفريقية بما في ذلك مصر أم المدينيات ! وهم قد حاولوا أن يسندوا حججهم بمختلف الأسانيد ، وأرادوا أن ينتزعوا من هذا المؤتمر الدولي اعترافاً ضمناً أو تسليماً بأن هذه المنطقة أهم المناطق في إفريقية بل ربما في العالم كله ، رغم ما قد يبدو في ظاهر هذه الدعوى من إغراق وإغراب . . . وقد بدا كأن هؤلاء العلماء والباحثين البريطانيين إنما يقصدون من وراء دعواهم هذه وجه الحق دون سواه ، وأنهم إن عملوا على إقناع بقية علماء المؤتمر بوجاهة حججهم فلن يكون ذلك إلا إظهاراً لما لإفريقية عامة من فضل على الإنسانية في بناء تراث حضارتها الأولى قبل أن يطلع فجر التاريخ ؛ كما أن بعض هؤلاء الباحثين البريطانيين قال إنهم إذ يرفعون صوتهم في المؤتمر ويرجون منه تسجيل هذا الصوت لا يهدفون إلى أن يفاخروا بما كان لإفريقية من ماض مجيد — فذلك الماضي ليس ماضيهم ، كما لمح بعض العلماء الفرنسيين في كثير من دهاء العلماء ! — وإنما هم يهدفون إلى إبراز قيمة هذه المنطقة للعالم

عامة وللعلم البريطاني خاصة ، فيزداد اهتمام الجمهور والهيئات العلمية بتشجيع البحوث الدراسية التي يصح أن تقوم بالبحث والتنقيب في هذه المناطق الاستوائية . . . وهذه حجة ولا شك وجيهة ؛ ولكنها تنحرف بالعلم والعلماء إلى ما يجب ألا ينحرفوا إليه ؛ كما أنها كانت في أغلب الظن تخفى وراءها وتتطوى في باطنها من أفكار السياسة وأهدافها المرسومة أكثر وأعمق كثيراً مما ينطوى عليه الغرض العلمي الظاهر . فسياسة الناهيين من دعاة الإمبراطورية وبناتها في القرن الماضي قد هدفت كما ذكرنا إلى زيادة اهتمام أبناء الإمبراطورية بشرق إفريقية عن طريق إيفاد الرحالين ، وإذاعة المعلومات وأنباء الاستكشافات الإفريقية عن طريق الجمعيات العلمية وغيرها ، مما انتهى به الأمر إلى أن سعت بريطانيا حكومة وشعباً ، أو شعباً وحكومة ، إلى أن تستعمر الشرق الإفريقي ، وتوطد أقدامها في أراضي المستعمرات فوق الهضبة الاستوائية . واليوم يشعر مفكرو الإمبراطورية وحفظة تراثها وميراثها ، وفي طليعتهم المرشال سمطس ، أن اهتمام الإمبراطورية وأبنائها بهذا الجانب من إفريقية ينبغي أن يشحذ من جديد ، إذا قدر لشرق إفريقية أن يصبح نقطة ارتكاز هامة في الإمبراطورية ، ومنطقة تجمع للقوى والقوات الإمبراطورية تنفذ منها إلى الشمال أو إلى الشرق وقت الحاجة على نحو ما هو مرسوم . وليس غريباً في هذا الصدد أن يسعى مفكرو الإمبراطورية وراسمو الخطط فيها إلى أن يلفتوا نظر مواطنيهم في أرجاء الإمبراطورية إلى ما لشرق إفريقية من قيمة وخطر عن طريق أحد المؤتمرات الدولية ؛ فالإمبراطورية ووسائلها في الدعاية والتعريف ينبغي أن تلائم الزمن ؛ وما كان يصلح في القرن الماضي من استخدام الرحالين والمستكشفين والإذاعة عن طريق الجمعيات العلمية ليس يكفي في جيلنا الذي نعيش فيه بعد أن تم استكشاف مجاهل إفريقية السوداء بصفة عامة ، وبعد أن غدت شهادة مؤتمر دولي كهذا الذي عقد أخيراً في نيروبي أرفع قيمة وأبعد أثراً من شهادة جمعية علمية أو عدد من الجمعيات العلمية ، مهما كان لتلك الجمعيات من سند ، ومهما ذاع لها من صيت .

ومع ذلك فقد تنبه المؤتمر لخطورة هذا الجانب مما عرض عليه من بحوث . وكان على مصر وعلى أنصارها من القائمين بالدراسات المصرية والمعجيين بما سبقت به مصر وشمال إفريقية إلى بقية القارة خاصة وإلى العالم عامة من فضل

كبير في نشأة الحضارات وتطورها . . . كان عليهم أن يقرعوا الحجة بالحجة وأن يقدحوا البرهان بالبرهان حتى برز الحق . . . أو حتى عاد إلى البروز وضاء منيراً بعد أن أزيل ما أثير حوله من غبار!

ولكن الأغرب من هذا كله أن أراد منظمو المؤتمر والداعون إليه أن يهدفوا إلى تقسيم إفريقية إلى ما يمكن أن نسميه « مناطق دراسية » ، تشمل كل منها عدداً من الدول أو المستعمرات الإفريقية ، يوحد التمثيل بينها في حفلة افتتاح المؤتمر وفي تكوين لجانه العلمية ، وتنسيق خطط الدراسة المتصلة بكل منها . ولم يبد في هذا الاقتراح ما يثير الريبة أو المخافة في نظر كثير من المؤتمرين ؛ ولكن الذين خبروا ما هدفت إليه بريطانيا في العهد الأخير من تشجيع الاستجابة المتبادلة بين أهل العلم وأهل السياسة ، كان لهم العذر كل العذر في أن يتوجسوا قليلاً وأن يترددوا كثيراً قبل أن يتقبلوا هذا الاقتراح . وقد تحقق ماخشوه وما ترددوا فيه عندما عرض الاقتراح البريطاني في صورة محدودة ، فتبين أنه يرمى إلى أن تعتبر مصر بمفردها أو بالاشتراك مع سواحل إفريقية الشمالية منطقة قائمة بذاتها ؛ ويعتبر السودان جزءاً من منطقة تمتد في شرق إفريقية إلى روديسيا ؛ ويعتبر جنوب إفريقية وجنوبها الغربي منطقة ثالثة ؛ والكونغو ومعه إفريقية الاستوائية المنخفضة منطقة رابعة ؛ ثم السنغال وسواحل إفريقية الغربية منطقة خامسة . . . ويهمننا من هذا التقسيم المقترح — أو الذي كان مقترحاً — أنه يرمى إلى فصل مصر عن السودان ، فتمثلان في الحفلة الرسمية لافتتاح المؤتمر تمثيلاً مستقلاً ، وتعتبر كل منهما داخلة ضمن منطقة دراسية مستقلة ، ويفصل بينهما في التمثيل في اللجان ، ويبدو كأن المشكلات العلمية والدراسية فيهما لا ترتبط ولا تتداخل ، وحتى المصطلحات العلمية وأسماء الحضارات القديمة والسابقة للتاريخ في كل منهما تكون مستقلة عن الأخرى . . . ولم يكن ليهم أصحاب الاقتراح في ذلك أن تبقى مصر منفردة أو أن ترتبط ببقية إفريقية الشمالية في الغرب ؛ ولكن كان يهمهم بصفة خاصة أن يسجلوا في هذا المؤتمر الدولي أن السودان متصل بشرق إفريقية في مشكلاته الدراسية وفي تاريخ حضارته ، وأن حوض النيل لا يمثل وحدة إقليمية ولا دراسية . وهم بالطبع لم يجاهرُوا بشئ من ذلك في قول صريح ، وإنما تجاهلوا هذا الهدف المستتر ، كما تجاهلوا الدافع إليه ؛ بل تجاهلوا أن يكون إليه دافع ما غير تبسيط

إجراءات التمثيل والدراسة في أقاليم إفريقية ومناطقها ! وهنا أيضاً كان على مصر أن تقف في المؤتمر وقفة قوية تدافع عن حقها الذي هو حق العلم من غير شك . ولم يكن عسيراً على مصر لحسن الحظ أن تؤلب معها عدداً كبيراً من العلماء وأعضاء المؤتمر من غير البريطانيين ؛ فليس هناك شك في أن جميع الأدلة القائمة تحتم اعتبار مصر والسودان منطقة واحدة ، تتداخل فيها المشكلات والمسائل العلمية ، سواء في ذلك منها ما يتصل بنهر النيل وتطوره الطبيعي ، وما يتصل بنشأة الحضارات وتطورها خلال أعصر التاريخ . . . ولم يكن عسيراً على مصر أن تثبت ذلك أو أن تبرز روعته في المؤتمر من جديد ؛ فبدت وحدة الوادى في شؤون العلم والبحث والدراسة بما لا يدع مجالاً لمكابرة ؛ وأقر المؤتمر هذه الوحدة ، وتقرر آخر الأمر أن يعتبر وادى النيل في شمال شرق إفريقية وحدة دراسية قائمة بذاتها ، لها تمثيلها الموحد في افتتاح المؤتمر الرسمي وفي لجانه العلمية ، ولها دراساتها المتشابكة التي تبرز هذه الوحدة وتجعلها للباحثين والمتعلمين . . . أما شرق إفريقية فقد انكسحت منطقتة واقتصرت على أملاك بريطانيا وحباياتها وأراضى انتدابها في شرق القارة .

هذا طرف من حديث ذلك المؤتمر الإفريقي . وهو حديث قد لا يخلو من دلالة لمن أراد أن يستدل ، وقد لا يخلو من عبرة لمن أراد أن يعتبر . ولعل أول ما يدل عليه أن ماتجربى به أسنة العلماء من أن العلم ينبغي أن يأتى خالصاً لوجه الله ووجه الحق ، إنما هو قول كغيره مما تجربى به أسنة البشر من غير العلماء ! فطبيعة البشر ليست مما يغيره العلم ، وليس العلم مما تتغير معه طبيعة البشر . وخير لنا جميعاً أن ندرك ذلك وأن نتمثله في أعمالنا وأقوالنا ؛ وأن نكون في ذلك كله صرحاء مع أنفسنا وصرحاء مع الناس . ولئن كانت هذه الحقيقة قد تمثلت في هذا المؤتمر بالذات ، فإنها تتمثل ولا شك في مؤتمرات أخرى كثيرة . . . تتمثل ظاهرة أو خفية ، سافرة أو محجبة ، وغاية ما هناك أن الأعضاء البريطانيين في هذا المؤتمر كانوا أشد حاجة وأكثر تلهفاً من غيرهم على أن يخدم المؤتمر أغراضهم الخاصة ، وعلى أن تسعفهم هذه الخدمة فيما هم بسبيله من إعادة تنظيم لشؤون الامبراطورية في إفريقية . وقد لا يملك النصف إلا أن يرى العاذير للعلماء والباحثين في هذا العصر إن هم كانوا في خدمة السياسة القومية ؛ فنحن

خارجون من حرب ضروس ، سخرت فيها الأمم أبناءها في مختلف ضروب الخدمة الوطنية ، فاشتغل العلماء — والبريطانيون منهم خاصة — خلال الأعوام السبعة أو الثمانية الأخيرة في أعمال تمت كلها أو جلها إلى الحرب أو السياسة بسبب قريب أو بعيد ؛ وقد اكتسبوا في هذه الفترة عادة النظام والطاعة والتفاني في الخدمة القومية . ولعل هذا أن يكون من ورائه ما بدا من ميل أعضاء المؤتمر البريطانيين إلى الاتجاه به ، حسب خطة مرسومة ، في نطاق سياسة عامة لا يملك العلم والعلماء أن يجيدوا عنها أو يخرجوا عليها . وسواء أضح هذا الافتراض أم لم يصح ، فلا بد أن ننتظر فترة قد تطول أو تقصر قبل أن يتخلص العلماء في العالم كله من عصبيتهم القومية التي أكرهتهم عليها ظروف الحياة ومقتضياتها خلال هذه السنوات الأخيرة . ولكن الشيء الذي ينبغي أن نعيه تماماً وأن يتمثله القائمون على شؤون البحث والدراسة في مصر خاصة هو أنه من الخير لنا أن نحاول الإهتمام بهذه النزعات التي تسيطر على العلم والعلماء في غير مصر، وأن نكون على حذر مما قد تجرنا إليه تلك النزعات التي قد تأتي من جانب بريطانيا على وجه الخصوص ، ولكنها قد تأتي من جانب غيرها من الأمم . فالعلم في هذا الزمن أصبح أقرب إلى حياة الأمم مما يبدو في ظاهر الأمر ؛ ومحافل العلماء ومؤتمراتهم تزيد هذه الحقيقة جلاء ووضوحاً في كل يوم يستوى في ذلك ما اتصل منها بعلوم المادة والحياة اليومية ، وما اتصل منها بفنون المعرفة لا تمت إلى حياة اليوم وحضارته بسبب ظاهر ومن واجب مصر وأمثالها من الأمم التي تقوم في قلب العالم ، وتتصل لدراسة حضارتها بل حياتها الحاضرة بكثير مما يتدارسه العلماء في هذه المحافل والمؤتمرات القارية والعالمية من واجبها أن تشارك بكل ما يسعها في هذه الدراسات ، وأن تسعى ليكون تمثيلها قويا في هذه المحافل والمؤتمرات ، مهما بدا ذلك بعيد النفع قليل الفائدة عند من لا يتعمقون الأمور ولا ينظرون إلى بعيد . ولن يكون من الخير بالنسبة لنا أن ننطوي على أنفسنا في هذا العصر الذي اتصلت فيه أسباب الحياة بين الأمم ، وفي هذا العالم الذي لا تنتهي فيه العزلة والانطواء ، إلا إلى ذبول وفناء .